الخيبة ، ولا احصد الا العرق يتفصد عن جبهتها العالية ...

ولولا ابو قيس لما عرفت ، انا الاعمى ، كيف نلتقي اقدار البائسين تحت جبال الانتظار المهيض الجناح ، لولاه لما استطعت ان اراك ، يا عبد العاطي ، ولولاي لما استطاع ان يسمعك ... انما انت ثمرة طيش تنبت في رؤوس الكسحاء الذين يتعلمون ، بجرعات البؤس المر ، ان الحياة ليست سوى الانتظار ، ولولا اننا تقاسمنا الخيبة ، سمعا وبصرا ، لما ارتدت الي طيرة حيفا ، ولما التقيت فوق قبرك قدري ، ولما عثرت تحت رأسك على شريكي في هذه المرارة التي يكاد طعمها ان يقتلني اختناقا ، ولقد قادني المبصرون خارج طيرة حيفا ، وآن للعمي ان يتحركوا . ان الاشياء التي ترونها ليست هي ، وذات يوم سأشرح لكم ذلك كله ، والا لما كان بوسعكم ان تروا في ثمرة فطر نبيا صامتا يجترح المعجزات ، وانا الاعمى الذي اعرف ان المعجزة انما تجترح من القاع ، فالثمرة هي معجزة الجذور الضاربة في رحم الارض ، الضاربة في غور هذا البدن المقدس للتراب الذي ليس له ملامح ، وليس بوسع الفطر الا ان ينزلق على الجذوع الجوفاء ، ان يطل على الناس من فوق وان يخدعهم ، ولكنه ليس المعجزة ، وانا الان ربما لاول مرة ارى في الظلمة المحيطة بعيني حقيقة تتوهج بضوء لا قبل لاحد على احتماله ، واقبلك ايها العمى ، اتحداك ، واستطيع ان اسبر غورك ، واذا كان المبصرون يرون في الفطر نبيا ووليا يجترح المعجزات ، فانا الذي رأيت فيه ، باصابعي ، ثمرة من الطيش تنزلق على سفح احلامنا مثلما التفاحة تنمو وتنقرض ، ولقد اطرحتك ، ايها الولي ، واعطاني الرجل الاصم اسمك ، ولم يكن بوسعك ان تدافع عن هذا الذي بقي لك ، وتركتنا نمضي ، ونحن حين مضينا انما قتلناك ودفناك مرة اخرى ، بلا ضوء وبلا صوت ، وبالصمت الذي تستحقه !

— ٦ —

جاء حمدان فوقف ابو قيس واخذ يستعد ليمضي : « اسمع يا عبد العاطي ، نستطيع ان نأخذ فأسا ومنكوشا ونذهب الليلة الى هناك » .

قال حمدان : « أعوذ بالله » . الا ان ابا قيس لم يسمعه ، فمضى يقول : « لو قطعنا الشجرة ، ودفنا رأس الولي ، فلعلنا نسترد ابصارنا واسماعنا » . واخذ يضحك فيهز الطاولة امامي ، ويضرب بجمع كفه على ظهر حمدان الذي اخذ يدمدم حانقا ، وعاد ابو قيس يقول متجها بصوته الي : « ان ظهور الولي لم يجترح المعجزة ، فلعل غيابه يفعل .. أتأتي معنا يا ولد ؟ » وكنت اعرف أن حمدان سيفقد صبره ، فأخذ يتنهد بصوت مسموع ، ثم قال : « انتما كافران مارقان تستحقان العمى والطرش ، اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته فسيحكم عليكما بالمحق ، ويمسخكما » قلت له : « اذهب انت ، واطلب منه عقلا ، لعله يستجيب » فعاد يقول : « اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته اخذت على عاتقي ابلاغ الشرطة ، انني انذركما : سأبلغ الشرطة » قلت لنفسي : ها قد صار عند الولي جهاز شرطة ! وصاح ابو قيس بصوته الذي يشبه صوت رجل يتحدث من نافذة قطار في محطة صاخبة : « هذا الولد خائف ، اليس كذلك؟ ماذا كنت تقول يا ولد ؟ » ولكنه لم ينتظر الجواب ، بل مضى بخطواته الثقيلة الى خارج المخبز ، وعندما وصل الرصيف صاح : « سأراك فيما بعد يا عبد العاطي ، علينا ان نتحدث » .

وخيم صمت نخش فيه رائحة الوقد في الفرن ، وهو يغوص صوب الموت . وظل حمدان صامتا ويفوح في صمته طنين الندم ، مثلما يفوح كلما كان يشتط به الغيظ فيتحدث عن العمى الذي اصابني وكأنه عقاب . عددت ثلاثة ارغفة واسقطت ثمنها في الدرج واتجهت برأسي صوب حمدان احثه على الكلام ، فقال :